

سيناريو الأحداث المتصورة في المنطقة للسنوات الثلاث القادمة

لنفرض أن الجرائم التي يستمر شارون في اقترافها خلال الفترة الباقية من المائة يوم جرت كما رسم وخطط، ولم يعترضها شيء. لنفرض أنه ضيق على الفلسطينيين رقعة الأرض حتى سيطر عليهم تماما، ومارس هوايته الدموية في تصفية أعداد متزايدة منهم صبيحة كل يوم. لنفرض أنه جاء بأعداد كبيرة من الباصات لترحيل أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى خارج حدود فلسطين، وأن عملية الترحيل نجحت بحذافيرها. لنفرض أن الدول العربية لم تتحرك وأن الأمم المتحدة استمرت في تجاهل ما يحدث.

ما الذي سينجم بعد ذلك؟ هل ستعيش إسرائيل في أمان وبحبوحه؟ هل سترفع الجيوش في طول المنطقة العربية والإسلامية الأعلام البيضاء أمام زحف الطائرات والصواريخ والدبابات الإسرائيلية، وتخرج الملايين لتتنثر الورد على موكب المحتلين؟

لا، ليس ذلك متصورا ولا معقولا. والصحيح أن التضيق على الفلسطينيين لن يدفعهم إلى الرحيل بعد أن شبع الراحلون القدامى غربة وندما لخروجهم من البلاد عام ١٩٤٨. وأهالي فلسطين اليوم متشبثون بأرضهم كما لم يتشبث أحد من قبل، وسوف يفضلون نزع أرواحهم من أجسادهم على نزع أجسادهم من أرضهم.

والصحيح أيضا أن القتل يجر القتل والعنف يستتبع العنف. فعمليات القصف ضد مخيم خانيونس للاجئين ردت عليها عبوة ناسفة في كفار سابا. ومشهد (سحل) الشاب الخليي الشهيد على أسفلت الشارع في المدينة ردت عليه بندقية فلسطينية بإطلاق نار أصابت مستوطنا وابنته في الخليل. وفي مقابل كل موجة اعتداءات إسرائيلية تلقى الإسرائيليون ردا مناسباً من جنس عملهم. ولم يعدم الفلسطينيون في أي وقت من الأوقات وسيلة للرد على العدوان. وأمام المحكمة العسكرية الإسرائيلية قال علاء أبو علبة سائق باص إيجد إنه قام بعملية التي استخدم فيها الباص لاجتياح الجنود الإسرائيليين وقتلهم بالجملة لأنه شاهد ما صنعه عساكر الاحتلال الإسرائيلي بالفلسطينيين في خانيونس وغيرها (وهذا يذكرنا بالشاب الفلسطيني الآخر الذي كانت فكرة عملية وهو يركب باصا على طريق القدس تل أبيب أن يتحكم بسائق الباص الإسرائيلي الذي يمسك بالمقود فيدفعه إلى منحدر سحيق ليقضي على الركاب والسائق وعلى نفسه أيضا). وهذا يذكرنا أيضا بالشاب رائد الريفي الذي استعاض بسيف قديم عن الأسلحة النارية ونزل إلى شارع بيافا ليقترض من المستوطنين المارين بذلك الشارع).

وربما يحسن الإسرائيليون صنعا إذا تذكروا عمليات الترحيل الواسعة التي نفذها الجيش الإسرائيلي في البرهة الأولى من احتلال حزيران يونية عام ١٩٦٧، فقد كانت عمليات واسعة حقا وقد جرت في ظروف جد ملائمة لجيش الاحتلال في صدمة الهزيمة الأولى التي أصابت الفلسطينيين. وكان من إجراءاتها جمع الناس في الساحات ثم أخذ الشباب وقتل بعضهم وتحميل الآخرين في شاحنات عسكرية وقذفهم فيما بعد إلى الضفة الغربية من قناة السويس. وبعد ذلك بقليل كثرت عمليات الحصار والتطويق والتعذيب في الساحات القريبة من المخيمات (وكانت مصحوبة بتسليط عملاء يشنون حملة ترغيب وترهيب لحمل الناس إلى خارج الحدود)، مما أدى إلى خروج آلاف آخرين من فلسطين إلى الخارج. والسؤال هو: ما الذي نجم عن ذلك؟ أليس هو تعاظم الثورة الفلسطينية المسلحة في الخارج التي وجدت أفضل مقاتليها بروليتاريا الثورة الفلسطينية بين هؤلاء المرحلين من أرضهم؟ وهل كان ترحيل هذه الأعداد كلها ذا أثر

جوهري قضى أو حتى أعاق نشوء المقاومة المسلحة في الداخل؟ وهل سيختلف الأمر اليوم إذا قام شارون وأركان حربه من المتطوعين إلى ترانسفير جديد بحملة ترحيل وإخراج جديدة؟ كلا. بل إن الجرائم التي دأب شارون ومن قبله باراك على اقترافها على مرأى ومسمع من شاشات الإعلام في العالم، قد رفعت درجة حرارة التعبئة والشحن في المنطقة العربية والإسلامية، بحيث لا مبالغة في القول إن نشوء حركة فدائية من جديد لن يقتصر على استيعاب الفلسطينيين المرحلين وعلى حزب الله وعلى أمثال حزب الله، ولكنه سيستوعب شريحة كبيرة من الشبيبة القادمة من كل فج عميق، التي ضاقت ذرعا بالعجرفة والظلم الإسرائيلي، وضاقت بالتصريحات السياسية العقلانية للحكام العجزة الذين لا يتصرفون بالجد الحقيقي إلا إذا مست الخطوب كراسيهم.

وهنا تقتضي الموضوعية في تصور السيناريو أن نقول إن الإسرائيليين لن يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء ذلك : سيحاولون اختراق تلك الحركة الناشئة، وسوف يضربون البلد العربي الذي تولد فيه هذه الظواهر بالطائرات والصواريخ، وهنا سيقف الحكام أمام أحد خيارين فإما أن يردوا على ذلك بالصواريخ والطيران وكل سلاح مخزون في مخازنهم، وبذلك تصبح الحرب الناشئة رسمية وشعبية في آن معا، وإما أن يصمتوا ويمسحوها في جنوبهم، فلا يعود لهم هيبه ولا بقاء على كراسيهم، وهكذا يفتح الباب أمام تطورات سياسية تأتي إلى الحكم بالأكثر تطرفا والأكثر ميلا إلى المغامرة. وأنداك يكون بضعة عشر صاروخا على مدن الساحل أقل ما يمكن توقعه في مثل هذا السيناريو.

سيقول شارون : " ولو! فلم يعد هناك بعد اختراع الهيليوكوبتر وتسليحها الجديد أي مستقبل لحرب العصابات. ولم يعد للدول العربية منشأة اقتصادية أو سياسية خارج متناول الطيران الإسرائيلي. والحاصل أن القوات المسلحة الإسرائيلية قادرة على إيقاع دمار حاسم في البلدان العربية المجاورة لا يبقى لها خيارا دون الاستسلام ". ولكن ذلك ليس صحيحا. وأمثال شارون لن يعترفوا بأنه غير صحيح، وإلا أقروا بأن وظيفتهم انتهت وعفا عليها الزمن. ولكن القول بأن حروب العصابات فقدت مستقبلها، لمجرد أن الشعوب المظلومة تعيش مرحلة من الحيرة والتردد أمام تكنولوجيا الحرب الحديثة والأسلحة المتطورة، هو قول مغالط، فما من سلاح يستجد في الميدان العسكري إلا ويقابله بعد حين سلاح مضاد. وكما اخترع المخترعون سلاحا خفيفا قليل التكلفة هو القاذف الصاروخي (الآربيجييه) الذي يستطيع أن يدمر دبابة ثقيلة باهظة التكاليف، وكما اخترع المخترعون صواريخ أرض جو محمولة على الكتف، بإمكانها إسقاط طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت، كذلك يمكن للعقل البشري والتدبير البشري أن يمضي قدما في سباق التجديد الذي لا ينتهي. ولن تصل البشرية قط وفق درس التاريخ إلى نقطة يتوقف عندها الاكتشاف والاختراع وتكنولوجيا الحرب وتكنولوجيا السلام.

أما حرب شارون مع الأنظمة فيما لو وقعت حقا فقد تكون الخطط العسكرية الإسرائيلية المختزنة في غرف العمليات من الضخامة والكفاءة والتعقيد بحيث تدمر نصف العالم العربي، ولكن : ألا يستطيع سرب من الطيارين الاستشهاديين العرب مثلا أن يدمروا تل أبيب بالمقابل؟

وبصرف النظر عن ذلك، هل يستطيع الإسرائيليون أن يعيشوا في ظروف الحرب، دون هناء، ودون عطلات، ودون أرباح، ودون أمان، مدة أطول من المائة يوم التي وعد شارون الإسرائيليون كما وعد بوش بأن ينهي الموضوع كله خلالها؟

نحن نتحدث هذا الحديث كله بافتراض أن المعطيات القائمة في الرصيد الإيجابي لإسرائيل ستبقى قائمة. وذلك ما لا الركون إليه لو كان لدى الاستراتيجيين الإسرائيليين خيال وقراءة للتاريخ (فليست الاستراتيجيات حسابات إحصائية وحسب ولكنها قراءة في التاريخ أيضا).

إن الحسابات الإسرائيلية كلها والكيان الإسرائيلي كله يتوقف على عناصر غير معقولة وغير ثابتة.

في الأساس لم يكن من الحصاد أن يأتي هرتزل ليزرع هذه النبتة في هذه البيئة وسط المحيط العربي والإسلامي، بالغصب والإكراه والقتل. وقد بني ذلك على دعاوى لا تصمد أمام الحقيقة فجئ باتباع ديانة لا يربطهم شيء غير الدين والمخاوف، ولم يسبق لهم أن أقاموا أية صلة بالأرض، وقيل لهم هذا وطن لكم. ولن يمكن لهم أن يقيموا حياة مشتركة على ضوء هذا القدر من التفاوت في العقليات والنفسيات والمستوى الحضاري. إنهم باختصار ليسوا شعبا حقيقيا ذا مقومات حقيقية على الإطلاق.

إنهم يعتمدون اعتمادا مطلقا على الولايات المتحدة، وهي قوة هائلة، ولكن لن يكون بوسعها أن تبقى قوية إلى الأبد متفوقة إلى الأبد كافلة طعام إسرائيل وشرابها وسلاحها إلى الأبد.

إنهم يريدون أن يلعبوا في المنطقة دور وكيل التسويق لصالح البضائع الأمريكية في حين ينادي خطباء المساجد في الخليج (الذي يملك جمهوره الصغير قوة شرائية يعتد بها) بمقاطعة البضائع الأمريكية. ويريد الإسرائيليون أن يلعبوا دور الدولة الصناعية في حين أن دول المنطقة تشق طريقها نحو الصناعة بخطوات قد تكون متعثرة، ولكنها لن تتيح لإسرائيل أن تحتكر السوق الاستهلاكية لنفسها على حساب الصناعات الوطنية.

إنهم يريدون أن يبيضوا على العالم ديمقراطية ورقيا في حين أن المواطن العربي حامل الجنسية الإسرائيلية ممنوع من تملك الأراضي، ممنوع من التكاثر، ممنوع باختصار من الحقوق البسيطة المتاحة للمستوطن اليهودي.

إن سيناريو السنوات المقبلة عنيف ملئ بالاضطرابات والمآسي. ولن يقود شارون المنطقة إلا إلى الخراب. وبعد ذلك الخراب قد يستطيع الفلسطينيون والعرب أن يرمموا أوضاعهم وأن يعودوا للوقوف على أقدامهم. أما إسرائيل فستحل بالتدريج انحلالا مدهشا مدهلا في تلاحقه وحجمه وسرعته.

لقطات الأسبوع:

• كثرت احتفالاتنا ومهرجاناتنا وقلت أفعالنا. لنأمل أن تكون ثمة فائدة من الاحتفالات والخطب ولو بنسبة ١٠%. حدث ذات مرة أن الإعلام الإسرائيلي عمد إلى تسريب أخبار عن قيام مسؤول فلسطيني كبير باتصالات سرية مع مسؤولين سياسيين إسرائيليين. فلما سئل في ذلك أجاب : لا تصدقوا إذاعة إسرائيل.. ومرت أشهر على ذلك، وعادت نشاطات المسؤول الكبير في الاتصالات السرية تتسرب إلى العلن مع شواهد قوية، وسئل في ذلك ثانية فقال : أنا لا أفوض ولكنني أكلف بمهمات معينة أقوم بها. وأخيرا راح يخوض في ما أنكره من قبل علنا (على عينك يا تاجر!). ومن هنا نفهم كيف تصبح لأجهزة إعلام الخصم مصداقية تستخدمها لشن صنوف الحرب النفسية على ساحتنا!!

• تسهر جهات معينة على إطلاق إشاعات بذينة ضد شخصيات معينة. منها إشاعة ذات سهمين مسمومين مزدوجين ضد رجل واحد : سهم يطعنه في وطنيته فيقول إنه تكشف عن

عميل للإسرائيليين، وسهم يطعنه في شرفه فيقول إنه يدير بيت دعارة. ورافق ذلك تطوع البعض لتوكيد الإشاعة بالقول إن الرجل موجود فعلا في سجن أحد أجهزة الأمن. كل ذلك والرجل غير موجود في البلد أصلا. وليس له علم بالإشاعة التي ملأت البلد خلال ثمان وأربعين ساعة (مما يدل على أن هناك متعهدين لنشر الدعايات السامة والإشاعات الخبيثة). ما هي المقاصد البعيدة لمثل هذه الحرب النفسية؟ وهل هي جزء من خطة شارون ذات المائة يوم يمهد للمراحل الأخيرة منها؟ وهل شبكات نشر الإشاعات مرتبطة بالأجهزة السرية الإسرائيلية مباشرة أم بالواسطة؟ وهل المنشورات المذيلة بأسماء مخترعة متعددة هي في الحقيقة صادرة عن غرفة سرية واحدة؟ أعتقد أن من صميم عمل الأجهزة الأمنية عندنا أن تتحرى هذه الأمور وأن تميّط اللثام عن الفاعلين وأن تضع الجمهور في صورة ما يراد بالناس.

• قال لي بعض الجرحى الذين عادوا بعد أن تلقوا العلاج في المملكة العربية السعودية إن مرافقين من أقارب البعض قد أساءوا السلوك والتصرف داخل المستشفيات بصورة همجية غير لائقة بالبطولة التي كانت محل التكريم. أليس من الضروري محاسبة هؤلاء بتهمة تبديد الرصيد الذي كونه الشهداء والجرحى، والذي هو ملك خاص للشعب العربي الفلسطيني بمجموعه؟

• من المؤلم أن يقدم فرد من عائلة على قتل أحد أبناء عمه. ومن المؤلم أن تتعسر مساعي التسوية في نطاق العائلة الواحدة وتصل إلى الطريق المسدود. أما كفانا القتل الذي أوقعه بنا أعداؤنا؟ أما كفانا تعسر التسوية السياسية بفعل الخصم الألد؟!

• لم يوافق شرويدر على تقييم بوتفليقة للصراع في الشرق الأوسط. وقد تدخل بفضاظة بعد حديث ضيفه الجزائري في مؤتمرهما الصحفي المشترك مستدركا بالقول إنه برئ مما قاله بوتفليقة مع أن أي مستمع يفهم ببداهة أن الكلام يلزم صاحبه فقط. ولكنها الخشية من أن يقع في لسان اليهود. والعالم ملئ بمن يخافون ولا يستحون. خصوصا في أوساط رجال السياسة.

• و أحدث مثل على الذين يخافون ولا يستحون ما فعلته هيلاري كلينتون حين أعلنت عن تبرعها بأكثر من ألف ومائتي دولار لشراء معدات وقاية للمستوطنين الإسرائيليين في الضفة والقطاع. هكذا ينقلب الجلاذ في نظر الرأي العام الأمريكي إلى ضحية، بفضل العهر السياسي.

• يقول المحلل العسكري لصحيفة ידיعوت أحرونوت الإسرائيلية إن القيادة السياسية الإسرائيلية وافقت على قيام الجيش بالتصعيد بأي ثمن. شكرا للقادة العرب الذين ناشدوا (الطرفين أن يلتزموا بتخفيف العنف والعودة إلى مائدة المفاوضات).

